المفسر ما بين قبلياته ومتغيرات العصر الحديث

إعداد

أحمد عبدالرحمن محمد فقيه

باحث دكتوراه بقسم الدراسات الشرعية والبناء الحضاري

كلية الآداب والعلوم الشرعية – جامعة ابن الطفيل

مُلخَّصُ البَحْث

تناول هذا البحث مُشْكِلة القبليات المعرفية للمفسر ودورها في فهمه في ظل متغيرات العصر الحديث؛ جغرافيًا، وإعلاميًا، ومعرفيًا، ومدى الصورة التأثيرية المنعكسة على استفهاماته المنبثقة من جراء هذه المتغيرات، خصوصًا في ظل انتشار المعارف بطرق حديثة ومتطورة. وهدفت هذه الدراسة إلى تحليل المعارف القبلية للمفسر بصورة علمية لا تجريدية ذهنية تقيم الحواجز إنما بطريقة تنظر لطبيعة النص، وللحالة الإدراكية لكل مفسر، وتحلل واقعه المعرفي السابق، معتمدًا في ذلك على المنهج الوصفي المرتبط بالتحليل الاستنباطي. ومن أهم النتائج التي توصل إليها: أن تغيرًا جغرافيًا متباعدًا تقارب في صورته، وسبلًا معرفية يسرت، وحقائق علمية ظهرت؛ كلها أسهمت بدورها في تكوين استفهامات جديدة للمفسر جعلت عبارته تستنطق النصوص، وتنزلها على الواقع برد النظير إلى النظير والجزء إلى الكل ببيان أوجه التشابه بين النص والواقع وفق ضوابط محددة، وبمنهجية ترتبط بالتراث وتتفاعل مع الواقع، كما أوضحت الدراسة أن المعارف القبلية قد تتحول إلى عقائد دينية تؤثر على المفسر ما لم يتم تعهدها بالتنقيح والتصحيح وخير ترياق لاستيعاب هذا الخلل تنقيحها من الهوى والضلال، ووضع الضوابط التي تحفظ للنص مكانته، وللواقع حاجته، وللمفسر علته.

الكلمات المفتاحية: المفسر، القبليات، المتغيرات العصرية، التطور المعرفي، التقارب الجغرافي، الدور الإعلامي.

English Abstract

This study has focused on the problems of the Interpreter's cognitive preliminaries and their positions in light of the modern time variables: geographically, cognitively and in the media. It also centers on the extent to which the revealed and influential image has on the inquiries which have been resulted from these variables in light of the spread of modern knowledge. The study aims at analyzing the Interpreter's preliminaries through using a scientific methodology avoiding the mental abstractions which maintain barriers. Our research methodology considers the nature of the text and the Interpreter’s perceptional conditions. The study has analyzed the reality of the interpreter’s previous cognitive condition using a descriptive and analytical approach. and getting them back to reality by returning the peer-to-peer and part to all through the clarification of the similarities between the text and realism in light of specific controls, and methodology associated with heritage and interact with realism. The study has also shown that the previous preliminaries of the interpreter may turn to religious doctrines and affect the interpreter unless they are revised and corrected. The best solution to avoid such defects is to revise them of passion and delusion, and set the controls that will keep the text in its right place, and the need of the real.

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

كلما زاد الابتعاد عن زمن تنزل الوحي نجد صور الاختلاف تزداد ما بين معانٍ قد تصب في دلالة النص القرآني أو تخالف ذلك؛ مما استوجب التوقف قليلًا لدراسة علة تغير الفهم لدى المفسر، وماهية الاختلاف أو المخالفة؛ فاتضح أن حقيقة الاختلاف تدور على المعارف القبلية للمفسر؛ فالمعارف القبلية للمفسر إذا لم يتعهدها بالتنقيح والتصحيح يجد نفسه يساق للورود إلى موارد التعصب والهوى دون أن يشعر، فينبري مدافعًا عنها وهو ما نراه متمثلًا في تفاسير الغلاة من الشيعة وغيرهم... إلا أننا في زمننا الحاضر بسبب تنوع المعارف ومشاربها ظهر لنا صنف آخر من المفسرين بسبب تغير المؤثرات المعرفية وتوسعها، وذلك أن المعارف في زمننا أصبحت سهلة المنال من أي قطر من أقطار العالم، تنتقل إلينا صوت وصورة، فلا بعدًا جغرافيًا يعيق، ولا فكرًا مذهبيا يمنع؛ إنما معارف تتلاقح، ورؤى تختلط جعلت طلبة العلم يصابون بالحيرة بسبب الاستفهامات المختلفة والتي تشربوا كأسها من منابع مختلفة، من ذلك مثلًا: أن هدهد نبي الله سليمان -عليه السلام- ليس طيرًا، إنما كان رجلًا فارسًا من الفرسان يمتاز بالقوة والسرعة، وأن المراد بالنمل طير من الطيور لا حشرة من الحشرات، وأن الصافنات الجياد هم النساء وليس الخيول، وأن مفردة النساء يراد بها الزينة المتأخرة وليس الجنس المؤنث، وأن الجن والشياطين والملائكة ليست إلا صفات بشرية، فلا جن ولا ملائكة ولا شياطين، وأن المسجد الأقصى ليس هذا البيت المعلوم في فلسطين؛ إنما هو مسجد صغير في أطراف مكة، وأن الصلاة حركات رمزية في ثلاثة أوقات، وأن المرأة ليست إنسانًا وليس لها وجود في الجنة؛ إنما هي زينة للإنسان في الدنيا فقط، وأن القرآن بصورته العربية كان من محمد صلى الله عليه وسلم، وأن نزوله كان حروفًا مقطعة؛ فجاءت الصورة الجعلية بلغة

قريش من محمد الرسول الخاتم، وأن ذا القرنين ملك من الملائكة، وأن يأجوج ومأجوج فوهتا بركان أو ديناصورات، وأن جبريل وميكائيل زوجان؛ لأن الله خلق من كل شيء زوجين.. وغير ذلك مما نراه لاقى صدىً كبيرًا لدى الكثير من رواد الفكر الحديث، وممن يرون أنفسهم مجددي التراث، ولولا جهود الراسخين من أهل العلم المتأخرين ممن كانت لهم قدمٌ في العلم تصحيحًا وتنقيحًا لالتبس السحر على الساحر، ولصال وجال من ليس في العلمِ راسخٌ فاضل.

وبالجملة حتى لا نخرج بعيدًا عن ماهية البحث؛ فإن القبليات المعرفية هي النبع لأي مفسر، وهي الرافد الأول لبيانه، والمكون الأبرز لاستفهامه، وتلعب دورًا كبيرًا في عصرنا الحاضر بصورةٍ أظهر من الزمن الغابر؛ عهد السلف الكرام -رحمهم الله- حيث كانت المعوقات المعرفية في زمنهم تتمثل في شحة المعارف في مهدها، وفي صعوبة الحصول عليها، إلا أن زمننا الحاضر بزخمه المعرفي المتطور والمتسارع كان للمؤثرات المعرفية المكوِّنة للصورة القبلية للمفسر جوهرٌ آخر؛ حيث دفعت المفسر لإبراز استفهامات تتغير في صورتها عن صورة الاستفهامات القديمة، وكوّنت له فهمًا غير فهم السلف؛ بصورة تتوافق معهم في خطوط أو تخالفهم شيئًا ما في خطوطٍ أخرى، تتجدد تارةً أو تتبدل أخرى، وهي في نتاجها المعرفي هذا متجددةٌ في التصور بقدر تجدد المعارف وتطورها.

وحيث إن الصورة المعرفية المتطورة في عصرنا الحاضر أسهمت في النقلة النوعية للمعارف العلمية؛ فإن هذا البحث -بتوفيق الله تعالى- سيكون رافدًا في عرض النموذج المساهم في التطور المعرفي في عصرنا الحاضر، وسيكون جُلُّ الاهتمام فيه منصبًا على الدور الذي تلعبه القبليات المعرفية للمفسر، وكيف أنها أبرزت دورًا معرفيًا فريدًا، ونقلةً وراثيةً نادرة في الفهم والسلوك والأخلاق، ينتقل صداها من جيلٍ إلى آخر حتى تصبح في صورتها نموذجًا معقودًا في القلب للمعارف والاعتقادات، تتوارث مشاربها الأجيال دون التأمل في صحتها وضعفها، ودون التنقيح أو الحذر من الانزلاق في رغبات الهوى، أو

مؤثرات الفساد العلمي، والمذهبي، أو غير ذلك من المؤثرات التي تجعل البعض منهم يقوم بليّ النص القرآني ويخرجه عن سياقه الصحيح نتيجة مؤثرات معرفية استقاها وتشرَّبَ معارفها سلفًا، وأثمرت له فهمًا خاطئًا جعلته يُخْرِج النص عن السياق المراد ويقع صيدًا للمؤثر الذي كان الأولى به أن يتنبه له حتى لا يقع فريسة له وهي بدورها جعلته يسوق النص لغير دلالته ومقصده، ودفعته ليخرجه عن المراد منه، وعن لغته الأصيلة التي تتقاطع مع العقل، والواقع، ومع المقصد الإلهي في النص.

مشكلة البحث:

المعارف القبلية للمفسر والتي تشرّبها من مجتمعه وشيوخه في الزمن الغابر تغيرت في صورتها في زمننا الحاضر؛ ففي ظل انتشار وسائل التواصل وسهولة انتقال المعارف أو الوصول إليها عبر التنقل الميسر في زمننا الحاضر ساهمت بتكوين قبليات غير منضبطة للبعض، بخلاف رياض العلم في الزمن الغابر والتي تنال من محاضن محددة بموطنها ومجموعها.

ومع هذا الاختلاف القبلي بين السلف وعصرنا الحاضر ظهرت رؤى وتفاسير غريبة ومناهج فريدة لا تستقيم على منهج بحث علمي ثابت.

لذلك؛ فإن هذا البحث في رسمه المحدد ما هو إلا دراسة بسيطة لكشف دور المعارف القبلية، وأهمية وضع الضوابط لها لحفظها من الزلل خصوصًا في ظل كون العَالَم في بوتقة معرفية واحدة بغثها وسمينها.

أسئلة البحث:

يمكن أن تصاغ أسئلة البحث في الاستفهامات الآتية:

- هل للقبليات دور في فهم المفسر وبيانه؟
- هل مؤثرات الاختلاف المتفق عليها قديمًا هي نفس المؤثرات في عصرنا الحاضر؟ أم أن تغير الواقع ساهم في تغير المؤثرات؟
- هل للواقع الجغرافي والاعلامي والعلمي الحديث دور في تغير المناهج التفسيرية؟
- ما السر أن علماء السلف –رحمهم الله– نقلوا إلينا كل شيء بغثه وسمينه، ولم يقوموا بالتنقيح بصورة كلية؟ هل لأهمية النقل وعدم اكتمال المعرفة في زمنهم أو لوضوح كل شيء؟ أو ماذا؟
- هل الصراع القديم بين مدرسة النص ومدرسة الفكر لم يكن صحيحًا؟ والواقع يعيد رد النصاب إلى حقيقته؟ أو أن الأمر يعود إلى سنة التداول والتكامل المعرفي؟ أو أنها ظاهرة معرفية طبيعية؟

أهداف البحث:

١. بيان علة هامة من علل الاختلاف بين المفسرين.

٢. التعرف على المؤثرات العصرية على المفسر وتغيرها عن مؤثرات السلف.

٣. بيان دور الواقع الجغرافي والإعلامي والعلمي المعاصر في الفهم لدى المفسر.

٤. لفت أنظار الباحثين إلى أن انتشار مدرسة النص في الزمن القريب من الوحي أمر طبيعي، ثم توسعها في زمننا بسبب توسع المعارف، وهو أمر معرفي طبيعي لا يقدح في منهج التأمل إن وافق المنهج البحثي المتبع خصوصًا في ظل الحقائق العلمية.

٥. بيان أن المعارف القبلية للمفسر هي اللاعب الرئيسي في فهمه وتعصبه، وهي من تستحق التنقيح والمراجعة حتى لا يقع المفسر فريسة الهوى والجهل.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث من خلال النقاط الآتية:

- إبراز أهمية القبليات المعرفية ودورها في نقل المعارف.
- وضع ضوابط لتجنب الأثر السلبي للقبليات، وبيان أهمية تصحيحها.
- المساهمة في توجيه ما أشكل من خلاف بين مدرسة النص ومدرسة الرأي.
- المساهمة في الدفاع عن القرآن والسنة ضد الطاعنين في فهم السلف وفي السنة.

مصطلحات الدراسة:

قبليات المفسر: وهي دراسة تهتم بفهم الفهم، بمعنى أن قبليات المفسر هي المعارف السابقة على إدراك الأشياء وفهم الموضوعات والعلم بها، وتقسم إلى قبليات منضبطة كثوابت لها مكانتها واحترامها، وقبليات غير منضبطة، وهي تحمل صورًا متعددة؛ كقبليات مذهبية وقبليات معرفية مختلف في نتاجها واجتماعية وسياسية وبيئية وغير ذلك، أسهمت بدورها بشكل مباشر في تكوين استفهام المفسر للبيان.

الدراسات السابقة:

حسب استقراء الباحث عن القبليات المعرفية ومدى أثرها على المفسر وبيانه؛ فلم يظفر بمادة علمية مكتملة في هذا الباب إنما كل ما توفر شذرات متفرقة وفي مواقع النت أو كتابات منشورية كانت بمثابة كلمات نثرية متفرقة تفتقد في أغلبها للمنهج العلمي الأكاديمي الموثق والمحلل والمستدل، وكان جل ما توفر بصورة موسعة شيئًا ما يأتي:

١. الهرمنيوطيقا (الكتاب والسنة) لمحمد مجتهد شبستري؛ حيث قسم الكتاب إلى قسمين؛ قسم مختص بقليات المفسر، وقسم آخر خصصه لإعادة بناء الفكر الديني؛ فكان البيان من المؤلف في ثلاثة فصول من أحد عشر فصلًا خصصهما عن القبليات بصورة مباشرة وبصورة ضمنية غالبة، وذلك بما استعرضه بصورة واضحة في الفصل الأول

بعنوان: ملابسات فهم النصوص؛ وفيه أشار المؤلف للقبليات ومفهومها ومدى تأثيرها على المفسر، ثم عرج في الفصل الثاني الموسوم بعنوان: الوحي الإلهي والمعرفة البشرية؛ حيث تحدث فيه عن تأثير العلوم والمعارف البشرية على الفهم لدى المفسر، كما بين أن معارف البشر المستنبطة من فهمهم لفهم أقوال الرسول ومعطياته، ثم اجتهادات العلماء من بعد الصحابة خلال أربعة عشر قرنًا كلها بجملتها شكلت معارف لدى المفسر تختلف عن معارف السلف... .

كما خصص فصلًا مستقلًا عن القبليات، وتحدث فيه بوضوح عن القبليات المعرفية، ومدى تأثيرها على مدارس التفسير، وهو ما استعرضه بوضوح في الفصل التاسع الموسوم بعنوان: قبليات المفسر ووصفه بأنه فصل تأملات في التجارب التفسيرية لأهل الحديث والأشاعرة والمعتزلة والعرفاء والمتأخرين ... وبين فيه صورة مدرسة النص، ومدرسة الفكر، وغيرها من المدارس الأخرى، وكيف أن هناك قراءات تختلف حسب كل مدرسة يستقي فيها الشيخ معارفه؛ فهناك قراءة المعتزلة، وقراءة الصوفية، وقراءة أهل الحديث، والفلاسفة وغيرهم تختلف كل مدرسة في بيانها حسب قبلياتها المعرفية.

ثم بين أن هذه القراءات على تعدد مشاربها وتنوعها تجعل كل مدرسة متميزة عن الأخرى؛ فمدرسة الأشاعرة -كما قال المؤلف- تحمل نَفَسَ القداسة التي تعطي صورة الاستماع والتسليم، وهي بصورتها تخالف مدرسة المعتزلة التي بنوا أسسها على ضوء الأسس العقلانية.... إلى آخر ما استطرد في بيانه الذي أثبت فيه أن القبليات والميول لهما الدور الأكبر في التفسير والبيان والاستنباط.

٢. بحث بعنوان: "القبليات وأثرها في التفسير الفخر الرازي مثالًا"، يتكون من عشرين صفحة حيث قسمه الباحث إلى ثلاثة محاور رئيسية، وهي:

- المكون الثقافي.
- الميول والتطلع.

- تصورات المفسر عن النص.

وتحدث في كل قسم -بصورة مختصرة- عن الإمام الرازي، وأنه شخصية فكرية دينية فلسفية لغوية تحمل سعة في العلم الأشعري عقيدة، والشافعي فقهًا، والفلسفي حجة وبيانًا؛ لكنه رغم هذه السعة التي جعلته يأخذ كل العارف والعلوم دون تحفظ، إلا أن صورة التأثر تظهر مرات في الجانب الفلسفي القائم على طرح الاستفهامات دون بيان لجوهرها والاجابة عليها بصورة مقنعة للقارئ.

٣. وهناك مقالات مختلفة تتعلق بالقبليات المعرفية ودورها المؤثر على ميول المفسر وبيانه، ومن أبرزها مقال بعنوان: "الأنثى وخلفيات المفسرين" للدكتور: إبراهيم بن سليمان المطرودي، وقد لفت الكاتب النظر إلى أن خلفية الإنسان تحكمه في فهم ما يقرؤه، واستيعاب ما يطّلع عليه[١].. .

منهج البحث:

يقوم هذا البحث على المنهج الوصفي المرتبط بالتحليل الاستنباطي، وهو منهج يقوم على تحليل الوقائع التاريخية وتأثيرها على المفسر من خلال الربط بينها وبين تعليق المفسر على الأحداث وبيان النصوص بصورة استنباطية، لا تجريدية ذهنية تقيم الحواجز، إنما بطريقة تنظر لطبيعة النص وللحالة الإدراكية للمفسر، وتحلل واقعه المعرفي السابق حتى لا ينمو بصورة سلبية.

(١) مقال بعنوان: (الأنثى وخلفيات المفسرين)، إبراهيم المطرودي، العدد ١٦٩٥٦ بتاريخ ٢٠١٤م. http://www.alriyadh.com

حدود البحث:

يجدر بالذكر: أن البحث سيكون وفق الأطر الآتية:

١. عرض الدور الذي تلعبه القبليات المعرفية في بيان النص مع استعراض مدى التغير قديمًا وحديثًا في انضباط هذه القبليات قديمًا وتشتتها في عصرنا الحاضر.

٢. إبراز شواهد عن دور القبليات المعرفية في الزمن الغابر ودورها في عصرنا الحاضر.

٣. استعراض بعض متغيرات العصر الحديث والتي ساهمت في توسع المعارف وعدم انضباطها.

٤. وضع ضوابط إجمالية لبيان النص القرآني.

٥. بيان فهم المفسر في تغير المؤثرات المعرفية الحديثة من الناحية الجغرافية، والإعلامية، والعلمية المتمثلة في الاعجاز العلمي والموضوعي خصوصًا في ظل التطور البحثي بصورة موسعة.

إجراءات وأدوات البحث:

اتبع الباحث لإنجاز البحث ما يأتي:

١. عرض صور نموذجية من التفسير لقبليات بعض المفسرين وبيان مدى التأثير الذي أكسبها صورة عقدية قبل أن تتكون الصورة البيانية، كما تمثل في مفسري الشيعة والصوفية الغلاة وغيرهم.

٢. بيان دور الواقع الجغرافي والإعلامي والعلمي الحديث في معارف المفسرين وتغيرها في البيان.

٣. التوثيق للمعلومات المنقولة، والإحالة إلى مصادرها أو مرجعها بذكر جميع المعلومات المتعلقة به عند ذكره أول مرة، مع ذكر اسم الكتاب ثم المؤلف ثم بقية المعلومات.

٤. إبراز الآيات القرآنية بخط مغاير؛ حيث تأتي الآيات كلها مشكولة، مع كتابة اسم السورة ورقم الآية بعدها مباشرة، دون الإحالة إلى الهامش مخافة الإكثار من الهوامش.

٥. إبراز الأحاديث الشريفة بخط مغاير ومشكولة بالشكل، وعدم إبراز أي حديث دون تخريج.

٦. كما اعتمد الباحث -بعون الله تعالى وتوفيقه- وبشكل أساسي على ما صح من مرويات في كتب السنة المعتمدة، وأولها صحيح البخاري ثم مسلم، ثم كتب الصحاح البقية، مع الاهتمام بنقل ما اطلعت عليه من كلام العلماء في بيان درجة الحديث.

٧. الشرح للألفاظ الغريبة الواردة في الأحاديث أو في صلب البحث.

٨. التفادي للأخطاء الإملائية والنحوية.

وانتهت الدراسة -بتوفيق الله تعالى- بخاتمة تحتوي على أهم النتائج والتوصيات مع ذكر ثبت للمصادر والمراجع.

محتوى البحث:

يشتمل هذا البحث على: مقدمة، وثلاثة مباحث، على النحو الآتي:

مقدمة البحث.

المبحث الأول: مؤثرات عصرية أسهمت في تغيير قبليات المفسر.

المبحث الثاني: القبليات ما بين الإبداع والابتداع.

المبحث الثالث: الواقع والقبليات.

الخاتمة وبعض النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مؤثرات عصرية أسهمت في تغيير قبليات المفسر

قبليات المفسر والتي تلعب دورًا كبيرًا في تكوين الحالة الإدراكية في فهم الأشياء أو العلم بها تحمل صورتين في تكوين معارفها السابقة، وهما: قبليات ذات طابع ثابت ومنضبط يحمل صفة الاتفاق، تستوجب الأخذ بها ولا يصح الميل عنها أو القدح فيها؛ لأن القدح فيها قدح في معتقد الإنسان وثوابته، وهي التي اشترط صورتها العلماء لمن أراد الخوض في تفسير كتاب الله تعالى، والمتمثلة في أساسيات المعارف كاللغة وما تفرع منها من نحو وتصريف واشتقاق، ومعاني، وبيان، وبديع...، والأصول وما ارتبط بها من علم الفقه والناسخ والمنسوخ، والأحاديث،... وغيره من أصول العلم التي لا بد من توفرها في المفسر بصورة ثابتة.

بخلاف القبليات الغير منضبطة والتي تحمل صورة الاجتهاد وترتبط بالمؤثرات البيئية وتتعلق بالمعارف الحديثة كالإعجاز العلمي ... وغيره مما له تعلقٌ بباب الاستنباط والتنزيل، وله محطٌ من النظر والاجتهاد يتأثر بالواقع وينبثق منه باستفهامات جديدة ومتنوعة، تعطي نموذجًا خاصًا للفهم والاستنباط.

ومما كان له دور كبير في توسع دائرة الفهم وتغير بعض صوره ما نراه برز بقوة بصورة واضحة في القفزة العلمية والتطور المعرفي في العصر الحديث، وأعطى للإنسان قدرة على فهم التنزيل بصورة مغايرة عن رؤية السلف -رحمهم الله- بحيث جاء يحمل السعة والتجديد، ويحمل الصورة الكلية لمعالجة المستجدات والنوازل لدى سلف الأمة وخلفها، وهو مؤشر استيعاب فريد للنص القرآني لمستجدات كل زمان ومكان، ومؤشر بارز على عالمية كتاب الله تعالى، واستيعابه لتطورات المستقبل ومستجداته، ومن هذه المؤثرات التغييرية على قبليات المفسر المعرفية في زمننا الحاضر ما يأتي:

أولًا: الواقع التضاريسي (الجغرافي): حيث إن هذا الواقع بصورته القديمة المتمثلة بالتضاريس الصعبة في المسافات الشاسعة بين المدن والقرى المترامية الأطراف التي تستبغ

بالمشقة والنَصَب في الانتقال تعطينا رؤية حرجة وشاقة في انتقال المعارف وتلاقح الأفكار الاستنباطية والتأويلية، بخلاف عصرنا الحاضر؛ فالبعد والمساحة الجغرافية اضمحل أثرها وتلاشى ظلالها بسبب عوامل الاتصال الحديثة، مما يسهم في يسر انتقال المعارف والحصول عليها.

ثم إن هذا البعد التضاريسي الذي اكتنف طبيعة الحياة عند السلف رغم مشقته في انتقال المعارف فيه، إلا أن ما يميز السلف أن هذا البعد رغم مشقته لم يكن أمامهم عائقًا، ولم يضعف الهمم عن مرادها في نيل العلم وطلبه، بل كانت المشقة متعةً بين أيديهم يتفاخرون بها، ومعابد تَعَبُّدٍ يتقربون بها إلى الله تعالى لاكتساب الأجر ونشر العلم برؤية واقعية تعالج عصرهم وتبرز نجاحهم في زمنهم، فلم يكن الفقر أو بعد المسافات وصعوبة البيئة الجغرافية عائقًا لهم دون اكتساب المعارف، فهذا الإمام الحافظ أبو حاتم الرازي إمام فن الجرح والتعديل (ت: ٢٧٧ه) يقول: "أول ما خرجتُ في طلب الحديث أقمتُ سبع سنين، أحصيتُ ما مشيتُ على قدمي زيادة على ألف فرسخ[١]، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا إلى مصر ماشيا ومن مصر إلى الرملة ماشيًا ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان ومن الرملة إلى طبرية ومن طبرية إلى دمشق ومن دمشق إلى حمص ومن حمص إلى أنطاكية ومن أنطاكية إلى طرسوس ثم رجعت من طرسوس إلى حمص"[٢].

(١) **الفرسخ**: اختلف فيه، وأصح ما قيل فيه: أن الفرسخ يساوي ثلاثة أميال، أي: ما يعادل (٥٥٤٤ متر) وهو ما يساوي بالكيلو (٥،٥٤٤)، وقد سار أبو حاتم هذه الرحلات كلها بصبر وهمة في طلب العلم ابتغاء وجه الله تعالى، جعلت الخطيب البغدادي يصنف كتابًا سمّاه: (الرحلة في طلب الحديث) ذكر فيه طرفًا من أخبار هؤلاء العلماء الأجلاء. انظر: محمد صبحي حلاق، **الإيضاحات العصرية للمقاييس والمكاييل والأوزان والنقود الشرعية**، ص٦٢.

(٢) ابن أبي حاتم، **الجرح والتعديل**، باب ما ذكر من علم أبي رحمه الله، ج١، ص٣٥٩.

كما حَدَّثت كتب تراجم الرجال أن محمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨ه) سقطت رجله وهو في رحلته في طلب العلم في بلاد خوارزم لشدة البرد وطول الطريق وكثافة الثلج، وأن صديقَه أبا الفتيان عمر بن عبد الكريم الرَّوَّاسي الحافظَ (ت: ٥٠٣ه) سقطت أصابع يده، وأن الحافظ محمد بن طاهر المقدسي الحافظ المحدث (ت: ٤٤٨ه) بال الدمَ في طلب الحديث مرتين مرة ببغداد ومرة بمكة. ومما ذكره المقدسي في ذلك: "قال: بلت الدم في طلب الحديث مرتين مرة ببغداد ومرة بمكة، وذلك أني كنت أمشي حافيًّا في حر الهواجر بهما فلحقني ذلك، وما ركبت قط دابة في طلب الحديث، وكنت أحمل كتبي على ظهري إلى أن استوطنت البلاد، وما سألت في حال الطلب أحدًا، وكنت أعيش على ما بي من غير مسألة، والله ينفعنا به، ويجعله خالصًا لوجهه"(١).

أما المحدث الحافظ يعقوب بن سفيان النسوي فقد بصره، قال يعقوب: "أقمتُ في الرحلة ثلاثين سنةً، وكنتُ في رحلتي فقلَّت نفقتي، فكنتُ أدُمِنُ الكتابة ليلًا وأقرأ نهارًا، فلما كان ذات ليلةٍ كنتُ جالسًا أنسخُ في السراج وكان شتاء، فنزل الماء في عينيّي فلم أُبصر شيئًا، فبكيت على نفسي لانقطاعي عن بلدي وعلى ما فاتني من العلم؛ فغلبتني عيناي، فرأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فناداني، يا يعقوب: لِمَ أنت بكَيْت؟ فقلت يا رسول الله، ذهب بصري فتحسرتُ على ما فاتني. فقال لي: ادنُ مني، فدنوت منه؛ فأَمَرَّ يده على عينيَّ كأنه يقرأ عليهما، ثم استيقظتُ فأبصرتُ، فأخذتُ نُسختي وقعدتُ أكتب"(٢).

إذن فالواقع الجغرافي -رغم مشقته- لم يكن عائقًا أمام السلف في نقل المعارف وتلاقح معارفها، بل كان باب رفعٍ للهمم والتنافس، لكن ما يميز واقعنا المعاصر: أن هذه المشقة التضاريسية اندثر شأنها، ورغم اندثارها إلا أننا لم نجد نموذجًا كنموذج السلف؛

(١) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، باب محمد بن طاهر بن علي، ج٥٣، ص٢٨١.

(٢) **ابن حجر، تهذيب التهذيب**، باب من اسمه يعقوب، ج١١، ص٣٨٧.

فريد الهمة عالي القمة، يسعى لهدفه بصورة خالصة لله وحده؛ ولعل الفارق بيننا وبينهم يعود للنيات محرك الهمم، ولأن طلب العلم في زمنهم لم يكن مرتبطًا بالشهادات العليا التي أنّثتْ النيات وفي زمننا ونزعت عنها صفتها الذكرية مما أنّثَ عزمها بالكسل وضعف الهمم.

ثانيًا: الواقع الإعلامي: لم يكن الواقع الإعلامي بأقل شأن من سابقه بل له دور كبير جدًا في بث المعارف، إما بصورةٍ صحيحةٍ أو بصورةٍ سقيمة عبر الإذاعات أو التلفاز أو المقاطع المسجلة في الإنترنت ... وهي بدورها ربطت بين الرؤى الاستنباطية والتأويلية بين كثير من العلماء، وردِّ بعضهم على بعض، وحواراتهم في كثير من المستجدات والنوازل، وهي صورة سرّعت في انتقال العلوم، وبث الحقائق بالصوت والصورة، والتي لم يكن لها وجود في الزمن الغابر، بل كان لها ظهور مع التطور المعرفي الحديث، وهي بدورها أبرزت لنا صورًا تعليمية كثيرة، منها: الندوات، والمحاضرات، والدروس اليومية، تنقل المعارف والعلوم من مكان إلى مكان، يستقي طالب العلم ثمرتها جنية متنوعة من كل أصقاع العالم، يُقَلِّبُها كيفما يشاء، ويستقي معارفه وعلومه التي قد تواكب واقعه أو تخالفه شيئًا ما، وتكسبه علومًا لا ترتبط بواقعه ولا بمعارفه، بل لربما التمس علومًا جديدة أزاحت عنه غبش الإشكال لبعض نوازل واقعه، وازاحت عنه بعض الالتباسات والشُبَه.

لذلك؛ فإن مما يحمد في هذا التطور أن رسالة عبر أي موقع تواصل لأي عالم وشيخ، في أية زاوية من زوايا الأرض ترى الجواب يأتي إليك كسرعة البرق ليذهب عنك اللبس.

ثالثًا: التطور المعرفي وقفزته العلمية(١): في زمننا الحاضر تطورت المعارف كعلم الإعجاز العلمي وغيره؛ فما كان في صورته القديمة غيبًا أصبح اليوم مشاهدًا وفق هرم معرفي دقيق، وأصبحت سبل التعلم والتعليم مُيَّسرة، وارتبطت الأفكار والعقول، وتلاقحت علومها من اليابان والصين والجزيرة العربية بل من كل قارات العالم من كل قرية ومدينة تنتقل المعارف بين يدينا مقروءة ومرئية. بخلاف الزمن الغابر جيل السلف الكرام -رحمهم الله- فقد تكَوّنت صور اجتهادية وتفسيرات فردية؛ لم تُلمس معالمها بين يدي عصرهم، ولم تنتقل إلى غيرهم، بل لربما اندثرت بموت العالم البعيد في سكنه، واندثرت علومه، ولم تنتقل لمن هم في عصره، وكثيرًا ما نجد العلماء يذكرون مؤلفات لعلماء لم نجدها لا بصورةٍ مخطوطة ولا مطبوعة، وهذا يوحي لنا أن هناك علومًا لم يصلنا نورها وبقيت حبيسة الزمان والمكان؛ فإما أنها اندثرت أو بقيت حبيسة رهن في طي

(١) كالإعجاز العلمي القرآني، وهو من أبرز العلوم الحديثة التي أظهرت العلم من طور الاحتمال والغيب إلى طور الحقيقة والمشاهدة، واتضح ما كان مختلفًا فيه لدى السلف في هذا الجانب، وما كان غامضًا، بل وربما لم يخطر لهم بيانه فيها، من ذلك: ما برز في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]، ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠]، ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠]، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، .... وغير ذلك من الآيات التي كانت في موطن غيب في زمن السلف وبتطور المعارف اتضحت صورتها في صورة مشاهدة أعطتها الوضوح والبيان، الباحث.

الزمان حتى برزت بعضها على صورة مخطوطات نالها التحقيق والنشر في زماننا الحديث، و لم تسطع شمس معارفها قديمًا، ومنها ما بقي مجهول البيان والمكان.

وانتشار المعارف والعلوم التي لا يعرفها كبار العلماء في الزمن السابق ليس لسبب أن عصرنا تميز بعقلية الإنسان في هذا العصر ونقص في القدرات العقلية في الزمن السابق، إنما يعود حقيقة الأمر في ذلك لتطور المعارف البشرية التي بني عليها الكون وساهم في عمارته العلماء عبر الزمن سواء كان إعمارًا حسيًا أو فكريًّا.

رابعًا: الحقائق العلمية: ومن المؤثرات العصرية على فهم المفسر وبيانه وكان لها دور بارز في الاستنباطات التفسيرية والمعارف النصية؛ الاكتشافات العلمية، بل ما زال الإعجاز العلمي هو الرائد في العصر الحديث نظرًا لارتباطه بالحقائق العلمية في الآفاق والأنفس.

والحقائق العلمية لم تكن حديثة العصر الحديث في الإشارة إليها، بل كان للسلف الكرام إشارات خفيفة لم تكن مكتملةَ المعالم في صورتها المعرفية في زمنهم، وكان من رواد هذا الباب الإمام الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)؛ حيث كان من الأوائل الذين ساهموا في ترويج هذا العلم في الأوساط العلمية[١]، فكان يرى أن القرآن يحوي على العديد من العلوم[٢]، ومثله الإمام الرازي (ت: ٦٠٦هـ)؛ حيث كان يرى وجود جميع العلوم في القرآن بالقوة، كوجود الشجرة في النواة والبذرة ... وله كتاب في هذا المجال اسمه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز).

(١) الذهبي، محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ج٢، ص٤٧.

(٨) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٣/١٩٨٣)، ج١، ص ٢٨٩.

والامام السيوطي (ت: ٩١١هـ) تحمس لهذا النوع من التفسير في كتابيه[١] (الإتقان في علوم القرآن)[٢] و(الإكليل في استنباط التنزيل)[٣]، وكان يرى ما يراه كل من الغزالي والرازي، ويستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وبأحاديث نبوية، منها: ما روي عن أبي هريرة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(يَأَيُّهَا النَّاسُ لا تَغْتَرُّوا بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ مُغْفِلًا شَيْئًا لأَغْفَلَ الذَّرَّةَ وَالْخَرْدَلَةَ وَالْبَعُوضَةَ)**[٤].

وكان أبو الفضل المرسي: (ت: ٦٥٥ هـ)، يقول في تفسيره[٥]: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط به علمًا إلا المتكلم به، ثم قال: أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ ثم قرر مثل ذلك في علوم الهيئة (الفلك) الهندسة والجبر والمقابلة.

وفي المقابل؛ فهناك من عارضهم، فها هو أبو إسحاق الشاطبي (ت: ٧٩٠ هـ) -من أبرز الذين وقفوا في وجه هذا التيار- ويحتج في ذلك بأنه لم يرد عن السلف الصالح من التابعين ومن يليهم مَن تكلم في هذا اللون من التفسير، وهم من أعرف الناس بالقرآن وعلومه، ومع أنه في الوقت عينه لا ينكر أن في القرآن آيات تشير إلى ما كان العرب يعرفونه من علوم زمن نزوله، لكنه أنحى باللائمة على أولئك الذين أضافوا إلى القرآن كل

(١) الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ص٤٧٧.

(٢) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، (بيروت: دار المعرفة)، ج٢، ص١٩٠.

(٣) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، **الإكليل في استنباط التنزيل**، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٥-١١.

(٤) الأصبهاني، **العظمة**، ج ٢، ص٥٣٢.

(٥) الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ص٤٨٧ وما بعدها.

علوم الأولين والآخرين، كما فند ما احتج به أصحاب هذا النوع من التفسير من أدلة لتأييد دعواهم"[1].

أما في عصرنا الحاضر؛ فالتطور المعرفي والعلمي بزغ نجمه بصورة لم تكن في السابق، وسحر العلم الحديث المفكرين والمفسرين والعلماء بقفزته النوعية، وجرَّت كثيرًا من الكتاب والمفكرين والعلماء للتأثر بهذه الصورة الجديدة؛ فهذا الكواكبي (ت: ١٣٢٠هـ) وهو السابق للإبداع في التفسير، بمثل عزوه التصوير الفوتوغرافي إلى قول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: ٤٥]؛ حيث قال: "إن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع ورد التصريح أو التلميح بأكثرها في القرآن، وما بقيت مستورة إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب العالمين لا يعلم الغيب سواه".[2]

وكان للشيخ طنطاوي جوهري (ت: ١٣٥٨هـ) في تفسيره كثير من النماذج البيانية لهذا التأثر الذي برز في كتاباته بصورة لا ينكرها قارئ، بل كانت له كبوات تحسب عليه من شدة ولعه وتأثره بهذا العلم، ونوه في كتابه بجدوى هذا التفسير، وتعجب من إعراض العلماء المسلمين عن تلك الآيات التي ترشد إلى علوم الكون على الرغم من كثرتها، ولم يسلم صغار الفقهاء -كما سماهم- من لومه وتهجمه؛ لأنهم انصرفوا -كما يرى- باشتغالهم في الآيات الخاصة بالفقه عن آيات العلوم الكثيرة الواردة في القرآن، ويقدم طنطاوي جوهري في تفسيره هذا أبحاثًا علمية مستفيضة بعد تفسير لفظي مقتضب، ولا تعدو هذه الأبحاث عن كونها حشدًا من الأفكار التي توصل إليها العلماء في مجال

(١) الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ص٤٨٥-٤٨٦.

(٢) الكواكبي، عبد الرحمن الكواكبي، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، (دار البشير ،٢٠١٤م)، ص٤٤.

العلوم الحديثة حتى عصره"[١]، أما الدكتور مصطفى محمود: فقد كان ممن لهم الصدارة في هذا الجانب، وكانت له محاولات تفسيرية في هذا الجانب، وكان من أحد المنادين بالتفسير العصري وهو في نظره أكثر شمولًا من مجرد (التفسير العلمي) فكان كتابه الذي أسماه (القرآن؛ محاولة لفهم عصري) كتابًا فريدًا في مضمونه ورائعًا في جوهره ومحتواه مقتضب لبعض الآيات والمشاهد بصورة مختصره ومفيدة.

(١) الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج٢، ص٣٧٣.

المبحث الثاني: القبليات ما بين الإبداع والابتداع

بعد معرفتنا للمتغيرات العصرية؛ فإنه لا بد من التعريج على النموذج المتأثر من هذه المتغيرات، وعند التأمل سنجد أن قبليات المفسر المعرفية هي المؤثر الأول والأخير، وهي العامل الأول للتأثير على منهج المفسر ورؤيته، وهي التي تثمر لنا تفسيرات متطرفة، أو معتدلة، أو مخلة المقصد والدلالة ومجافية لروح النص والواقع.

لذلك؛ فإن ما نراه مهملًا ولم ينل الحظ الأوفر من الاهتمام؛ هو جانب القبليات المرتبطة بالمفسر، والتي تتمثل في حياته المعرفية، والتي أورثت له معتقدًا خاصًا، وفكرًا محددًا، واستفهامًا فريدًا؛ وذلك لأن فهم الإنسان وتحليله للنصوص القرآنية وتنزيله لها على الواقع يتغير من سلوك مفسر إلى آخر؛ من مفسر متأثر ومتعصب لقبلياته إلى مفسر منصف ومتأمل لها، ومن مقدس لواقع قبلياته إلى مُدّكر راسخ، أو من متأمل ومستنبط إلى متعصب ومتحجر، يرفض الطرف الآخر ويتهمه بالفسق والمروق من الدين رغم أن النص متشابهًا لا محكمًا.

ثم إن هذا التأثير يجعل من المفسر شخصًا ليس بريئًا من واقع قبلياته المعرفية، والاجتماعية، والعقدية، والتي تورث له نتيجةً معرفيةً خاصة قد تكون ضعيفة شيئًا ما، أو مُبدعةً ونادرة بشكل فريد، تلامس الواقع وتناسب السياق، وتعطي تحليلًا للنصوص وفق واقعٍ بعينه يعطيه صفة الإبداع والتفرد في الاستنباط الراسخ المناسب لا صفة الإتباع دون التأمل والنظر للصحة والضعف أو دون اهتمامٍ بالواقع وملابساته ومدى واقعية البيان وتفاعله.

لذلك فنحن أمام مفسر من ثلاثة؛ إما **متبعًا** أو **مبدعًا** أو **مبتدعًا**؛ فالإبداع والاتباع يكون وفق منهج السلف المرتبط في البيان بالأثر النبوي، وباللغة، والسياق، ويكون تفسيره ملامسًا للواقع ومتفاعلًا معه؛ وذلك لأنه سار على نهجٍ معرفيٍّ متطور واكبَ المسيرة المعرفية المتطورة في رحلة الزمن لكتاب الخلود وفق السياق، واللغة، والواقع

وبصورةٍ أتمّ وأكملْ، غير أن أحدهما ارتضى التقليد والآخر ارتضى التفكر، والتأمل، والاستنباط ليكون في عطائه نسخة نموذجية من الرسوخ العلمي الذي يتشربه العَالِم المتعمق حال كونه مؤمنًا بما يقول.

أما منهج الابتداع الذي يسير على غير صورة معرفية سابقة، وليس له ارتباط باللغة أو السياق بل ارتباطه نابعٌ من ثورةِ الهوى، وبركانِ التعصب فنتيجته المرجوة: الخروج عن المقصد القرآني ودلالته البيانية، وليِّ النص عن سياقه ومراده، وهو ما سنتعرض لبعضٍ من مشاهده في السطور الآتية مما يثير للقارئ هالة الاستغراب في الكيفية التي جعلتهم يعطوا للنص القرآني صورةً بيانية تجافي السياق واللغة والواقع.

لذلك: فليس من قبيل المبالغة القول بأن قبليات المفسرين المتعلقة بميولهم، وتوقعاتهم، ومعلوماتهم الأولية المكَوِّنة للاستفهام لديهم؛ هي السبب الرئيس للتأثير على الفهم لدى كل فقيه، وعالمٍ، ومفسر إلا ما ندر، وهي بذاتها تلعب دورًا بارزًا في الاختلاف بينهم في الاستفهام والبيان، ومن ثم: فإن نتيجة الواقع القبلي المبني على معارف محددة دون التقبل والتطلع لغيرها من العلوم والمعارف؛ مِنْ أبرز العوامل المؤثرة على الفهم؛ لأنه كلما تغير الواقع المعرفي واتسعت رقعته يتغير الفهم لدى المفسر ويتسع، فارتشاف العلم من واقع شيعي متشدد يثمر نموذجًا شيعيًا صرفًا إلا ما ندر، والواقع المتشبع بمعارفه وعلومه من واقعٍ فلسفي يثمر مفسرًا فيلسوفًا، ... وهكذا دواليك من النماذج التي تستقي معارفها وعلومها من نهر واحدٍ متفرع المنابع أو العكس، ومما يجرنا للقول: إن لكل زمن تفسيره الخاص وفق منهج متسلسل ومواكب للرؤية المعرفية المتطورة وفق مجامع تفسيرية عالمية تنظر للسياق واللغة والواقع بمنهجية علمية فريدة.

لكن ما يحز في النفس أننا نجد من المفسرين من يرفض باب الإعجاز العلمي وصورته جملةً، وتفصيلًا، ومنهم من يقبله بكل صوره السليمة، والسقيمة، ومنهم من يرتضي التفصيل، ومنهم من يأخذ بمذهبٍ معينٍ لا يحيد عنه قدر أنملة وينتصر له، ومنهم

من يرى مواكبة الواقع وفهم النصوص وفق تغير الواقع وقبول المفردة النصية بدلالتها الظاهرة أو الخفية، البارزة أو الشاذة؛ فظهرت كثير من التفاسير الموضوعية، والاجتماعية، والسياقية، والصوفية، والشيعية... وغيرها حسب اختلاف المشارب القبلية.

وليس بقولنا هذا نقول: إن الواقع المعاصر أثر على تفسير القرآن في مجال الطبيعة، ومجال الأحكام بصورةٍ كلية، وأن المفسرين بجملتهم وقعوا تحت ضغط هذا التأثير، بل إننا نجد من يخالف هذا التأثير؛ فيكون مقدار التأثير عليه متغير من شخص إلى آخر، إلا أن هذه التأثيرات بصورتها الكلية في الزمن المتأخر جاءت مختلفة من مفسرٍ إلى آخر ما بين صورة الاتباع لمنهج السلف معلنًا بأنه لا يجوز الخروج عن منهج السلف قدر أنملة، وأن قواعد البحث العلمي قد انقضى التجديد فيها، وأن من خالف ذلك فهو مبتدع ومخل بالمنهج والمقصد القرآني، وبين مُبدعٍ مواكب للواقع والسياق واللغة....

وأمر آخر لا بد ألَّا يُغفل عن بيانه في التطرق للنظرة القبلية المعرفية لأي مفسر، وهي أن مفسري السلف لم تكن قبلياتهم متغايرة بصورة متسارعة ومتشابكة بوسائل تواصل اجتماعية مرئية وغير مرئية كحال عصرنا، بل إنها تكاد تكون متقاربة قليلة التغاير والتنافر؛ حيث أن معارفهم العلمية وواقعهم يظهر منه التداخل بخلاف واقعنا المنفتح على العالم في عصرنا والمتشابك في صورته والمترابط في حقيقته خصوصًا في ظل التكنولوجيا الحديثة، وانتشار سبل التواصل الحديث، والتي جعلت العالم كله قَلعَةً معرفية واحدة تتبادل المعارف بينها والعلوم بصورةٍ متسلسلة وسلسةٍ ميسرة؛ مع الأخذ بعين الاعتبار **النَظَرْ في طبيعة النص** المراد تفسيره وبيانه والقَدر الذي يستحقه من التأويل؛ لأن النص القرآني ليس بنص بشرى يؤخذ على الهوى ووفق الفهم المطلق، بل له قداسته الإلهية التي تحمل المعاني المقدسة، والتي تحتمل أكثر من وجه لعمقها وسعت ثروتها اللغوية، فلا بد من مراعاة الصورة التعظيمية والسياقية السابقة واللاحقة فهو كلام من أوجد المخلوقات، وشتان بين من أوجد من عدم وكون وعلّم وبين من خُلِقَ فقيرًا في كل شيء، فرق بين الصمدية

المستغنية عن كل شيء وبين من افتقر لكل شيء.

ولا ننسى أيضًا: **الحالة الإدراكية لكل مفسر**؛ فهي صورة متفاوتة من مفسر إلى آخر، ولو أتحدت لاتحدت النتائج، ولكن بسبب هذا الاختلاف اختلفت الفهوم للنص القرآني، ولولا هذا الاختلاف لما كان جمال التنوع والاختلاف البنّاء والمتكامل برغم أنه قد يعيش كل منهما في واقع واحد، وبظروف متشابهة لكن حالة الإدراك في كل منهما تختلف من شخص إلى آخر؛ فإحساس شخص ومقدار تأثره من حرارة شيء، أو لونه تختلف من شخص إلى آخر وفق تركيبه الحسي والعصبي والنفسي، فيصبح نتاج هذا الاختلاف **متأثر بنواحي نفسية وبيئية وفكرية** ... فيبني التصور الذي يراه هذا العالِم وفقًا عليها مع لمساته المعرفية السابقة.

وهكذا نصل إلى نتيجة: أن ثمة علاقة عكسية بين فهم النص المراد بيانه وبين قبليات أي مفسر؛ فكلما زاد تأثير النص وفهمه ضعف تأثير القبليات، وكلما زاد تأثير القبليات ضعف فهم النص وظهر التفسير الموافق للهوى، كحال كثير من مفسري الشيعة -كما أسلفنا- وتفسيرهم بالعصمة لآل البيت والأئمة؛ حيث انتقل ذلك إلى فهمهم للنص القرآني.

وللإنصاف؛ فإن لوثة التعصب كما لم يسلم منها مفسري الشيعة في كثيرٍ من كتاباتهم، كذلك لم يسلم منها مفسري أهل السنة، لكنَّ الصورة التأثيرية بين أهل السنة كانت بنحو نسبي في القبليات الغير منضبطة، أما من يظن أن شذوذهم كان في القبليات المنضبطة، فهو واهم غاب عن رؤيته الوضوح والحقيقة بسبب جهل ونقص في اكتمال الصورة ووضوح الرؤية فاعتلى عرش الإفتاء على جهلٍ منه لا على نور وبينه، وخير شاهد على ذلك ما نراه جليًّا من بعض المتأخرين ممن تربع عرش العلم ناقمًا على أهل الرسوخ في الزمن الغابر -رحمهم الله تعالى- قادحًا فيهم ومستأنسًا بشواهد استقاها من شروحهم، ومستدلًا بها لصورة التأثير المتخيلة، ومعلنًا أن هذا خير شاهد على أن للواقع

دور كبير على تغيير معارف أهل العلم، ولو كانت ثوابت منضبطة، وتجرهم للميل عن المنهج العلمي المستقيم في البيان، ومن أبرز ما قالوه: أن أهل الفقه والتفسير من سلف الأمة تأثروا بالواقع الجاهلي الذي يختص بالمرأة في صورته المنتقصة لكرامة الأنثى، وانتقل أثر ذلك في بيان أهل الفصاحة إلى الاستعمال اللغوي، غافلين أو متجاهلين-أي المتربعين- ؛ أن هذا البيان حقيقته التكريم لا الانتقاص ولا الاحتقار، بل هو استخدام عربي فصيح شائع بينهم، كما قال الأعشى:

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شاتِه فَأَصَبْتُ حَبَّة قَلْبها وَطَحالَها[1]

وقول عنترة:

يا شاةُ من قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهْ حَرُمَتْ عَليَّ وَلَيْتَها لَمْ تَحْرُمِ[2]

وقيل: هي لغةٌ لبعضِ بني تميمٍ، وكَثُرَ في كلامِهم الكنايةُ بها عن المرأةِ، كما قال ابنُ عَوْنٍ:

أنا أبُوْهُنَّ ثلاثٌ هُنَّهْ... رابِعَةٌ في البيتِ صُغْراهُنَّهْ... ونَعْجتي خَمْسًا تُوَفِّيْهِنَّهْ...

فالعرب تكني المرأة بالنخلة أو النعجة أو غير ذلك مما ثبت عنهم كما قال: "الحسين: بن الفضل: هذا تعريض للتنبيه والتفهيم؛ لأنه لم يكن هناك نعاجٍ ولا بغي، كقولهم: ضرب زيد عمرًا، أو اشترى بكر دارًا. ولا ضرب هناك ولا شراء"[3]، كما أن العرب استخدمت هذا الأسلوب لارتباطٍ وثيق بين المرأة، وهذه الأجناس التي شبهة بها

(١) البيت من قصيدة يمدح بها (الأعشى) قيس بن معد يكرب. انظر: المبرد، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (ت: ٢٨٥هـ)، **الكامل في اللغة والأدب**، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، (باب للراعي في النسيب-ج١، ص٢٢٥).

(٢) الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري (ت: ٣٢٨هـ)، **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف -سلسلة ذخائر العرب (٣٥)، الطبعة: الخامسة.

(٣) ابن عادل، **اللباب في علوم الكتاب**، ج١٨، ص٣٩٧.

لمعنى جمالي حسن؛ لشكل قوامٍ منها أو حُسنِ عينٍ أو أنف أو عُنق وحُسن منظر ونظرة ساحرة أو غير ذلك مما ثبت عن العرب يكون بمثابة استخدام من قبيل التشبيه والجمال، بل يستحيل أن يكون لغرض القدح في الأنثى وإشعار العرب تكتظ بالمقدمات الغزلية لجمال الأنثى وحسنها ووصف شَعرها وقوامها وعينها وكل شيء يصدر منها ويبرز فيها.

لذلك؛ فاستخدام العرب كلمة النعجة للمرأة من هذا القبيل المراد منه امتداح بياضها؛ لأن معنى (النَّعَج) الذي منه اسمُ النعجة، (النَّعَجُ) هو شدَّةُ البياض، وهذا من ممادِحِ النساء وجمالِهنَّ، وكانت العربُ تقول: (نساءٌ كَنِعاج الرَّمل: جميلات واسعات الأعين)[1].

وهكذا نصل لنتيجة؛ هي أن جانب الحكاية والرواية والإسناد في الاستخدام البياني للصورة التقريبية في التوضيح بصورة مبسطة ليس فيه نَفَس الانتقاص للأنثى ولا زمهرير القدح لمكانتها، بل هو وسيلة بيان مبسطة لها مستندها من الاستخدام العربي والغير منتقد من أهل اللغة، خصوصًا أن من عاصروا التتريل هم أرباب اللغة والفصاحة، فكيف لم يثبت عنهم نكير، كما أن الصحابة الكرام لم نجد منهم ناقد لشعر العرب مصرحًا بذلك بأنه شعر خارج عن المقصد القرآني ومخالف له ولو كان ثمة نقد لبينه رسول الأمة لهم، وهو ما نهجه أهل التفسير وغيرهم في معرض بيانهم بصورة بيانٍ أو إحالة بيانية عن العرب من نزل القرآن بلغتهم ومن أحال فقد أسند.

والشيء بالشيء يذكر حتى تكتمل الرؤية بعد بياننا اغترار من تربع عرش الجهل لينتقد أهل العلم والتفسير، ومن عاصروا أهل التتريل واستقوا من منهل علومهم نستعرض بعضًا من صور استدلالهم التي يرونها سندًا وشاهدًا لهم، وهي في حقيقتها حجة عليهم لا لهم، تثبت ضبابية الصورة لديهم نتيجة جهلهم باللغة وبالبيان العلمي وما أشرنا له سابقًا

(١) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة (باب النون- ج٢، ص٩٣٣).

خير شاهد على رؤيتهم أن المرأة ليست منتقصة لغة إنما واقعًا بسبب الجهل؛ حيث يرون أن من رزق بأنثى يستعرُّ منها ويسارع بدفنها استحقارًا لشأنها واستشعارًا بأنها ليست بشر إنما موضع عارٍ وفضيحة وشنار يجب أن تدفن ويختفي ذكرها، وهو واقع استحث رسالة الإسلام التخصيص بالتكريم لهذه الأنثى أمًا وبنتًا.

والناضر في حجج الناقمين على السلف وشواهدهم يجدها لا ترقى للرد عليها احتمالات عقلية لا حجج بينة ونيرة كاستشهادهم بترجيحات بعضٍ من أهل التفسير المختص بالسياق لا بالاستخدام كابن عادل[١]، والكرماني[٢]، والراغب الأصفهاني في مفرداته[٣]، والفيروز آبادي في البصائر[٤]، وغيرهم ممن رأى أخذ ظاهر الآية كما هو وأن النعجة هي أنثى الضأن أو البقر، وأن هذا ما ذهب إليه كذلك المفسر اللغوي أبو حيان في (البحر المحيط) في بيانه؛ حيث قال: "والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها، من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك؛ لأن ذلك الإخبار كان صادرًا من الملائكة، على سبيل التصوير للمسألة، فمثلوا بقصة رجل له نعجة، ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمة المائة، فطمع في نعجة خليطه، وأراد انتزاعها منه، وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده، ويدل على ذلك قوله: وإن كثيرًا من الخلطاء، وهذا التصوير، والتمثيل أبلغ في المقصود، وأدل على المراد"[٥].

وأن ابن حزم قد عارض هذه الرؤية في التفسير بشدة في كتابه (الفِصَل) وهو يتحدث عن المذهب الثاني مرجحًا إياه، وهو ترجيح لا ينفي الاستخدام العربي؛ إنما يناسب السياق معنىً ودلالة؛ حيث قال: "وَهَذَا قَول صَادِق صَحِيح لَا يدل على شَيْء مِمَّا

(١) ابن عادل، **اللباب في علوم الكتاب**، ج١٦، ص٣٩٧.

(٢) الكرماني، **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، ج٢، ص٩٩٦.

(٣) الراغب الاصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، (باب نعم- ج١، ص٨١٤).

(٤) الفيروز آبادي، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، (باب بصيره في نعج - ج٥، ص٨٥).

(٥) أبو حيان، **البحر المحيط في التفسير**، ج٩، ص١٤٩.

قَالَه المستهزئون الْكَاذِبُونَ المتعلقون بخرافات وَلَدهَا الْيَهُود، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِك الْخصم قومًا من بني آدم بِلَا شكّ مختصمين فِي نعاج من الْغنم على الْحَقِيقَة بَينهم، بغى أَحدهمَا على الآخر -على نَص الْآيَة- وَمن قَالَ: أَنهم كَانُوا مَلَائِكَة معرضين بِأَمْر النِّسَاء، فقد كذب على الله -عز وَجل- وَقَوله: مَا لم يقل، وَزَاد فِي الْقُرْآن مَا لَيْسَ فِيهِ، وَكذب الله -عز وَجل- وَأقر على نَفسه الخبيثة أَنه كذب الْمَلَائِكَة؛ لِأَن الله تَعَالَى يَقُول: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص:٢١] فَقَالَ: هُوَ لم يَكُونُوا قطّ خصمين، وَلَا بغي بَعضهم على بعض، وَلَا كَانَ قطّ لأَحَدهمَا تسع وَتسْعُونَ نعجة، وَلَا كَانَ للْآخر نعجة وَاحِدَة، وَلَا قَالَ لَهُ: أكفلنيها"[(١)].

وأن خلاد بن سليمان -كما روي عنه- استغراب بهذا التفسير للمرأة؛ فروى بسند صحيح قوله: "اختصم عبد الواحد، وكان ممن قد جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، هو وعبد الله بن مسعود، فقال عبد الواحد: أرأيت حيث يقول الله في كتابه: ﴿تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾[ص:٢٣]، أنثى، ألم يكن يعرف حين قال: نعاج أنهن إناث، قال ابن مسعود: أرأيت حين يقول الله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦]، ألم يعرف أن ثلاثة وسبعة عشرة."[(٢)].

ثم يتساءل أمثال هؤلاء بقولهم: فهل يستقيم البيان عندما نجد مفسرًا كمقاتل -رحمه الله- في تفسيره يستعرض قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص:٢٣]، ثم يقول: "يعنى تسع وتسعون امرأة"[(٣)]؟

كل ما سبق وغيره كثير تتناوبه قنوات الإعلام ومنابر المفكرين مستأنسين بشواهدهم على جهل سلف الأمة وتأثرهم بالجانب السلبي، وهي حجج عليهم لا لهم

(١) ابن حزم الأندلسي، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، (باب الكلام في موسى عليه السلام وأمه- ج٤، ص١٤).
(٢) ابن وهب، **تفسير القرآن من الجامع لابن وهب**، ج٣، ص٤٦.
(٣) مقاتل بن سليمان، **تفسير مقاتل بن سليمان**، ج٥، ص٢٢٨.

كما أسلفنا، ولأن أهل التفسير اختص اختلافهم -بسياق الآية- لا بنفي الاستخدام اللغوي لمفردة النعجة؛ فكيف يستقيم لنا القول: إن حججهم ترقى للرد عليها؟ وهي مبنية على أساسٍ هش ضعيف، ثم نراهم يستقون شروح من تفاسير أهل العلم ومنها:

• قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦﴾ [الزُّخرُف:١٦]؛ حيث قالوا: إن ابن كثير -رحمه الله- قال: "كَذَلِكَ جَعَلُوا لَهُ فِي قِسْمَيِ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ أَخَسَّهُمَا وَأَرْدَأَهُمَا وَهُوَ الْبَنَاتُ"(١)، وقال في موضع آخر قوله: "أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ"، فقال: " أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيية، أومن يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل؟! فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى؛ فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه، ليجبر ما فيها من نقص"(٢)، وقال في موضع آخر عند تفسيره قوله تعالى: "وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك"، فقال: "فوحد لفظ الذكر لشرفه، وجمع الإناث لنقصهن"(٣)، فابن كثير -رحمه الله- لم يكن في بيانه هذا منتقصًا لقدر المرأة ومكانتها الإنسانية إنما المراد بذلك أن الأنثى ناقصة بمقتضى الخلقة التركيبية؛ حيث كرمها الإسلام وجعلها أميرة في مترل زوجها، لها من يقوم بشأنها، وهو من أعطي حق القوامة عليها وبحق إكرامها؛ وذلك لأن الأنوثة ضعف طبيعي ونقص خلقي تركيبي، فهي ليس لها ما للرجل من القوة لتعطى القوامة الموجبة بحقوق منه لها وعليها، بل هو نقص طبيعي يعطيها لمسة جمال وحسن حال تسلب به حب أهلها لها وتنال عطف الزوج، وهو من المحاسن لا المعائب، وهو ما أوعز الإمام ابن كثير بالإشارة له في صورته المحمودة لا على سبيل الانتقاص المتخيل والمعيب خصوصًا أن النبي صلى الله

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم لابن كثير**، ج٧، ص ٢٠٤.

(٢) المرجع السابق، ج٧، ص٢٢٣.

(٣) المرجع السابق، ج٦، ص٤٤٢.

عليه وسلم وصفهن بنقص العقل والدين؛ لكنهن في المقابل امتدحهن بأنهن يمتلكن قدرة سلب اللب للرجل الحازم، فهل يكون هذا نقصًا معيبًا أو نقصًا فطريًا يزيد من جمالها وحسنها وسحرها يقتضي احترامها وتكريمها، وهو ضعفٌ أشار له نبي الأمة بحفظه في الحروب وفي الحقوق وفي كل شيء.

• والإمام الزمخشري (ت: ٥٣٨ه) ذهب إلى ما ذهب إليه ابن كثير -رحمه الله تعالى- فقال: "أي يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحجُّ به من يخاصمه وذلك لضعف عقول النساء، ونقصانهنّ عن فطرة الرجال، يقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها، وفيه: أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام"[(١)]، وقال البيضاوي:[(٢)] (ت: ٦٨٥ هـ) -رحمه الله- في شرح آية الحلية: "أَهُوَ فِي الْخِصامِ في المجادلة، غَيْرُ مُبِينٍ مقرر لما يدعيه من نقصان العقل وضعف الرأي، ... وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثًا كفر آخر تضمنه مقالهم شنع به عليهم، وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على الله تعالى أنقصهم رأيًا وأخسهم صنفًا"[(٣)]، أما القاسمي[(٤)] (ت: ١٣٣٢هـ) فقد اكتفى بنقل كلام الزمخشري، ثم قال بعد سرده: "قاله الزمخشري"[(٥)]، والقاسمي والزمخشري في قولهما لا يكونا ضلعين في وهدت

(١) الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، ج٤، ص٢٤٣.

(٢) البَيْضاوي (٠٠٠ -٦٨٥ هـ = ٠٠٠ -١٢٨٦م): عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، قاض، مفسر ولد في المدينة البيضاء (بفارس -قرب شيراز) وولي قضاء شيراز مدة، وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها، انظر: **الزركلي**، **الأعلام**، (باب البيضاوي-ج٤، ص١١٠).

(٣) البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ج٥، ص٨٨.

(٤) جَمَال الدين القاسِمي (١٢٨٣ -١٣٣٢هـ = ١٨٦٦ -١٩١٤م) جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط: إمام الشام في عصره، علمًا بالدين، وتضلعًا من فنون الأدب، مولده ووفاته في دمشق. انظر: الزركلي، **الأعلام**، باب جمال الدين القاسمي، ج٢، ص١٣٥.

(٥) القاسمي، **محاسن التأويل**، ج٨، ص٣٨١.

الانتقاص للأنثى -كما يظن- وكما أسلفنا في البيان سابقًا، إنما من باب العرض والبيان لما أشار له ابن كثير وعامة أهل التفسير من أن الإسلام أعلن إنسانية المرأة وإكرامها، ونظر إلى طبيعتها التركيبية في الحياة، وهي صفة لا تنتقص من قيمة الأنثى، إنما تحمل صفة التمييز لكل جنس بخصائصه التي لا يمتلكها الآخر؛ فرأي المرأة في مواقف الحرب والقصاص والحروب ليس كرأي الذكر؛ فكل له بابه، فللرجل قوة ورأي لا تملكه المرأة في هذه المواقف، وهو ما تفتقده الأنثى لضعفها في هذا الجانب، وهو مشهد نقص لها عن الذكر لا يعيب منها ومن قيمتها، إنما يميزها بصورة أخرى عن الذكر، فكان أهل الشرك نظرتهم من هذا الجانب، وهو ما سطره أهل العلم ومنهم الزمخشري.

• وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص:٢٣]؛ حيث ذكر الإمام الطبري (ت: ٣١٠هـ) أن المراد بالنعجة هنا المرأة، وأنه إنما كنى بالنعجة ها هنا عن المرأة والعرب تفعل ذلك،[١] ويتفق معه في الرأي كثير كالزجاج[٢] (ت: ٣١١هـ)، والسمعاني[٣] (٤٨٩ هـ)، والواحدي[٤] (ت: ٤٦٨ هـ)،

(١) الطبري، تفسير الطبري = **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج٤، ص٣٢٦.

(٢) الزَّجَّاج (٢٤١ -٣١١هـ = ٨٥٥ -٩٢٣م): إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد، كان في فتوته يخرط الزجاج، ومال إلى النحو؛ فعلمه المبرد. انظر: أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، كمال الدين الأنباري (ت: ٥٧٧هـ)، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، المحقق: إبراهيم السامرائي، (الزرقاء - الأردن: مكتبة المنار، ط/٣-١٤٠٥هـ -١٩٨٥م) باب الزجاج-ج١، ص ١٨٣.

(٣) أبو المظفر السمعاني (٤٢٦ -٤٨٩هـ = ١٠٣٥ -١٠٩٦م): منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، أبو المظفر: مفسر، من العلماء بالحديث، من أهل مرو، مولدًا ووفاة، كان مفتي خراسان، قدمه نظام الملك على أقرانه في مرو. انظر: الزركلي، **الأعلام**، باب السمعاني-ج٧، ص٣٠٣.

(٤) الوَاحِدي (٠٠٠ -٤٦٨هـ= ٠٠٠ -١٠٧٦م): علي بن أحمد بن محمد بن علي بن مَتُّوية، أبو الحسن الواحدي: مفسر، عالم بالأدب، نعته الذهبي بإمام علماء التأويل، كان من أولاد التجار أصله من ساوة (بين الريّ وهمذان) ومولده ووفاته بنيسابور. انظر: الزركلي، **الأعلام**، باب السميرمي-ج٤، ص٢٥٥.

والزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، والغرناطي[١] (ت: ٧٠٨ هـ)، والسيوطي (ت: ٩١١هـ)، والشوكاني (ت: ١٢٥٠ هـ)، والألوسي (ت: ١٢٧٠ هـ)، وما ذهب إليه القرطبي وغيره، فكما أسلفنا سابقًا في بيان الاستخدام العربي، وما يشير إليه من دلالة بيانية في الاستخدام العربي، وما يحمله من تمييز، وتكريم لكل جنسٍ منهما؛ فتجوز هذه الكناية في حق الأنثى؛ لأن صورته ليس الانتقاص والذم والتحقير -كما أسلفنا- إنما مراد أهل العلم أن المرأة من حيث ضعفها وسكونها وعجزها شبيهة بالبقرة والناقة وغيرهما من المركوبات التي يغلب عليها صفة الضعف، وهو أسلوب تعريض عربي حسن الذوق والاستخدام، لا عيب فيه ما دام الاستخدام العربي يستسيغه تشبيهًا وكناية، واستخدمه أهل العربية في شعرهم وبيانهم؛ فكيف تفطن المتأخر ما لم يتفطن له المتقدم من عاصر زمن تترل الوحي وخالط النبوة وتشرب العربية واقعًا كما أسلفنا.

♦ ومن صور التأثير الأخرى:

●ما ورد عن بعض مفسري الشيعة عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦]؛ حيث فسرها القُمِّي؛[٢] فقال: عن أبي عبد الله (أي: الحسين بن علي بن أبي طالب) قال: **يخ** يم يِّ هو أمير المؤمنين، ومعرفة الإمام"،[٣] وقال أيضًا في

(١) ابن الزبير (٦٢٧ -٧٠٨هـ = ١٢٣٠ -١٣٠٨م): أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، محدث مؤرخ، من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلس انتهت إليه الرياسة بها في العربية ورواية الحديث والتفسير والأصول، ولد في جيان، وأقام بمالقة، فحدثت له منغصات، فغادرها إلى غرناطة، فطاب بها عيشه، وبها توفي. انظر: الزركلي، **الأعلام**، باب ابن الزبير-ج١، ص ٨٦.

(٢) القمي: هو علي بن إبراهيم، أبو الحسن مؤرخ، مفسر، من فقهاء الإمامية، قال الذهبي: "رافضي جلد، له تفسير فيه مصائب، توفي سنة ٣٢٩ه.انظر: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق: علي محمد البجاوي، ج٣، ص١١١.

(٣) القمي، الشيخ أبي الحسن علي بن إبراهيم القمي، **تفسير القمي**، صححه وعلق عليه: السيد طيب الموسوي الجزائري، (مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، ج١، ص ٤٦. نقلًا عن د. محمد لوح، **جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية**، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، ص٣١٩.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:٢]، "**الكتاب**" هو على رضي الله عنه، و"**المتقين**" هم شيعة علي رضي الله عنه"[١] ومن التأويلات كذلك تفسيره للجِبْت والطاغوت بأنهما أبو بكر وعمر-رضي الله عنهما[٢].

• أما قوله تعالى﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه:٣٩] فقال ابن عربي في تفسير الآية: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه:٣٨] هي "النفس الحيوانية: ﴿ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ أي: أشرنا إليها ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ ﴾ في تابوت البَدَن، أو الطبيعة الجسمانية ﴿ فَٱقْذِفِيهِ ﴾ في يم الطبيعة الهيولامية، ﴿ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ ﴾ عند ظهور نور التمييز والرشد، بساحل النجاة، ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي ﴾ النفس الأمارة الجبارة الفرعونية"[٣].

• وما ورد عن السلمي في تفسيره المليء بالشطحات التي اشتد إنكار العلماء عليه من ذلك مثلًا قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾ [الغاشية:١٨]، فيشير بقوله: "قال بعضهم: إلى الأرواح كيف جالت في الغيوب؟ قال الحسين (أي: ابن علي بن أبي طالب) إلى الأسرار، كيف أشرقت بالمكاشفات؟ و ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩﴾ [الغاشية:١٩]؛ فقال: "أشار تعالى إلى قلوب العارفين، كيف أطاقت حَمل المعرفة؟ وقال بعضهم: أشار إلى الأولياء، كيف نُصِبوا أعلامًا ومفزعًا".[٤].

---

(١) المرجع نفسه، ص٣١٩.

(٢) البحراني، السيد هاشم البحراني (ت: ١١٠٧ه)، **البرهان في تفسير القرآن**، (بيروت: مؤسسة الوفاء، ط٣ ، ١٤٠٣ه/١٩٨٣م. نقلًا عن جناية التأويل، ص٣٢٧.

(٣) السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي (ت: ٤١٢ه)، **حقائق التفسير**، تحقيق: سيد عمران، (دار الكتب العلمية ١٤٢١ه-٢٠٠١م، ص٣٦٥.

(٤) كالو، محمد محمود كالو، **القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير**، تقديم الأستاذ الدكتور: أبو لبابة الطاهر صالح حسين، والدكتور: عبد العزيز بن علي الحربي، (سوريا حلب: دار اليمان، ط١، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م)، ص٢٣١.

وبالجملة: فإن خلاصة ما نريد قوله في هذا المبحث أن المعرفة الفكرية والعلمية قد تتحول بسبب القبليات إلى عقائد تؤثر على المفسر، كتفسير بعض الشيعة الغلاة والصوفية والفلاسفة وغيرهم ممن ظهرت في كتاباتهم بصورة جلية، وكونت حجابًا عن الرؤية العلمية الصحيحة، فوضعوا النص القرآني في غير محله، حتى أن المتأمل يجد الكثير من الدراسات التفسيرية متأثرة ببيئتها السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية وغير ذلك، مما يبرز في تفسير المفسر، ويكون له أثر جلي في بيانه مما يستوجب منا المحاولة لوضع منهجية وقواعد تكون منضبطة لقبليات المفسرين اللغوية والسياسية والعلمية مع أخذ الاعتبار أن الفهم قائم على عاملين مهمين، وهما: **النص والقبليات**، وبقدر تأثير أحدهما -كما أسلفنا- يكون الفهم بصورة منضبطة أو مخلة بالفهم.

المبحث الثالث: الواقع والقبليات

"المفسرون هم الوسطاء في نقل المعاني الروحية (وليسوا حكامًا في الأرض)، وأصعب واجباتهم تنقيح مقدماتهم وقبلياتهم للمباشرة في عملية التفسير[(١)]، والمفسر إن لم يتحرر من قبلياته أثر ذلك على طريقة تفسيره سلبًا وعلى فهمه للنص القرآني، وهذا يقتضي منه بذل جهدٍ غير طبيعي للتحلل من براثن المؤثرات الخارجية والنفسية على الناحية المعرفية.

لذلك؛ فإن لم يتحرر المفسر من هذه القيود بصورة تعطيه الاتزان في البيان يقع في بعض الصور المثيرة للاستغراب كحال البعض من مفسرين وكُتَّاب من سلف الأمة من شيعة غلاة أو صوفية أو غيرهم، ومثلهم بعضٌ من مفسري العصر الحديث؛ حيث يقعون في أقوالٍ شاذةٍ لا تستسيغها الفِطَر السليمة ولا يقبلها عقل.

وفي زمننا الحاضر الحديث؛ فقد ظهر كُتَّاب ليسوا من أرباب التفسير والتخصص

(١) شبستري، محمد مجتهد شبستري، **الهرمنيوطيقا الكتاب والسنة**، ترجمة: حيدر نجف، مراجعة: عبد الجبار الرفاعي، (بيروت: دار التنوير للطباعة، مركز دراسات فلسفة الدين، ط١، ٢٠١٣م، ص٢٠.

لكن لهم قراءات نادرة وغريبه كشحرور، ولؤي فتحي، ونضال عبد القادر، وعماد محمد بابكر، ومنصور الكيالي،... وغيرهم كثير على تفاوت بينهم في الفهم والمنزلة العلمية، والكثير منهم حالفه الصحة في البيان وفق المنهجية المعرفية الصحيحة، والبعض منهم جاء بالغرائب الغير مستساغة لا في المعنى السياقي ولا في المنهج البحثي العلمي؛ فشحرور على سبيل المثال نجده يقول: إن مواقع النجوم التي يقسم الله بها هي فواصل الآيات،[1] وأن العرش هو أوامر الله ونواهيه، وأن الكرسي هي معلومات الله تعالى المتمثلة في الأوامر والنواهي،[2] وهو بيان يشد الانتباه، فهل السياق أنساه الدلالة اللغوية والاستخدام لها وفق البحث المنهجي للبيان العلمي؟ أو أن ثمة سر آخر ودافع تغلب عليه وحفزه لبيان ذلك.

ولفهم النص القرآني بصورة صحيحة لا بد من مراعاة أمور هي:

الأمر الأول: قبليات المفسر: قبليات المفسر الثقافية والمعرفية لا بد أن توظف في خدمة النص القرآني بعيدًا عن صورة لَيِّ النص القرآني وتطويعه وفقَ هوىً في النفس كحال بعض المتأثرين من قبلياتهم؛ حيث برز كثير من الكتاب مصبوغة حروفهم بهذا التأثير، ولعبت قبلياتهم المعرفية دورًا كبيرًا في فهم الواقع وتنزيل النص عليه.

وبما أن القبليات العلمية والمعرفية تلعب دورًا هامًا بمجموعها -الثابت والمتغير- فإنها تشكل نقطةَ بدايةٍ هامةٍ مؤثرة في تفسير النص القرآني؛ لأنه كلما كان الواقع أكثر تأثيرًا كلما كانت لمساته على المفسر أكثر -إلا ما ندر- وهي بطبيعتها تفرز الميول لدى المفسر في بيانه وتفسيره لمعنى محدد وصورةٍ خاصةٍ كحال المفسر المتأثر بالفلسفة وعلم الكلام، وحال المفسر المنبهر بالنهضة الصناعية والعلمية الحديثة، أو المتأثر بحياة اجتماعية منفتحة، أو متشددة، أو حربية تدافعيه سياسية أو فكرية أو اقتصادية... كلها لها أثرها البين في كتابات المفسرين القدامى والمعاصرين ومعارفهم.

(١) شحرور، د. محمد شحرور، **دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم- المنهج والمصطلحات**، ص٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

لكن الغريب أن جهابذةً من أهل التفسير من الشيعة الغلاة رغم معارفهم العلمية الواسعة إلا أنهم يندر تحررهم من قبلياتهم المؤثرة فيهم والمرتبطة بصورة القداسة مما جعلهم يحرفون آياتٍ كثيرةٍ ويوجهون معانيها لفئة محددة من الصحابة دون التعميم الوارد في سياقها فيتخذون اللغة وأي إشارة نبوية شاهد لما يرونه ويرجحونه وهو خلاف دلالة السياق.

الأمر الثاني: النص: وهذا الأمر له أهمية كبرى في تفسير المفسر من حيث كون النص مكي النزول، أو مدني، أو كونه نصًا عقديًا، أو شرعيًا، وسواء كان محكمًا، أو متشابهًا فهو محتمل لأكثر من قراءة من المفسر؛ لأنه إن أخذ دلالة ثابتة دون احتمال قراءات أخرى له فلا داعي لكونه صالحًا لكل زمانٍ ومكان، وليس من حاجة لرؤى تفسيرية أخرى من المفسرين عبر كل عصر برؤية تناسب الواقع وتذكي روح القرآن ومقصده السامي المتجدد.

وقد أشار المفسر البقاعي (ت: ٨٨٥م) إلى هذه الظاهرة بقوله: "فاقتضت حكمته أن يكون هذا الذكر جامعًا لكونه ختامًا، وأن يكون معجزًا لكونه تمامًا، ونزله على حسب التدريج شيئًا فشيئًا؛ مكررًا فيه ذكر القصص، سابقًا في كل سورة منها ما يناسب المقصود من تلك السورة، معبرًا عما يسوقه منها بما يلائم الغرض من ذلك السياق مع مراعاة الواقع، ومطابقة الكائن.."[(١)]، وعليه فدلالة النص والسياق الذي ترد فيه لها دور كبير في الفهم، وفي جعل المفسر يسير منحى متسقًا معه؛ وفق النص والقبليات التي تَغذّى منها وتشرّب من معينها، وكان لها الأثر الكبير في تكوين الفهم لديه بصورة خاصة، كما هو الحال في فهم النص المكي والمدني، وعندما يعطي المفسر رؤيته لنص من نصوص القرآن الكريم وبيانه فيها نلحظ: أنه لم يكن نتيجةَ معرفةٍ ظاهرةٍ وبارزةٍ في النص

(١) يحيى محمد، **منطق فهم النص**، ص٧٩.

فقط؛ إنما جاء البيان لهذه النتيجة وفق تراكم قبليات تاريخيه، واجتماعية، ومعرفية، وعقدية كونت لديه نظرة خاصة، واستفهام خاص، وميول خاص أثر عليه وكون له استفهامات محددة جعلت نظرته التفسيرية متأثرة بالقبليات السابقة وشكّلَت رؤية مميزة لفهمه، وجعلته يتواكب مع واقعه، أو يرفض المسايرة له.

الأمر الثالث: الفهم: وهذا الأمر لا يقل أهمية عن سابقيه، بل إن "الفهم يتوقف على كل من القبليات والنص، وإن غياب أحد العنصرين الأخيرين يعني غيابًا للفهم ذاته.."[1]؛ لأن الفهم هو الصورة النهائية للقبليات والنص، فإن كان الواقع القبلي متغيرًا بسبب تغير الثقافات والعلوم والحياة الاجتماعية خصوصًا في ظل عولمةِ اليوم، وانصهار العالم في بوتقةٍ واحدةٍ؛ يكون الفهم فيها متأثرًا بها؛ والدليل على ذلك بروز الكثير من التفاسير العلمية في عصرنا الحاضر؛ كتفسير جوهري طنطاوي المسمى (الجواهر في تفسير القرآن الكريم)، و(التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق) للدكتورة هند شلبي ... وغيرهم ممن أفرد دراسات ومؤلفات عن الإعجاز العلمي في القرآن بفضل التغير الحالّ في الواقع نتيجة للتطورات المعرفية؛ فكانت النتيجة أن كثيرًا من المفاهيم تغيرت بسبب التغير المعرفي الحديث بصورة أوسع وأظهر، وهذا التغيير أو التطور والتوسع لا يعتبر قادحًا في فهم النص القرآني، بالعكس بل هو دليل على صلاحية هذا الكتاب في موضوعيته لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة يقوم بحل مشاكل هذه الأمة وفق مقتضيات العصر وأحوال العالم، وإن دل هذا الأمر فإنما يدل على أن النص القرآني باقٍ على قدسيته إنما المتغير والمتبدل هو فهم المفسر لسعة المعاني القرآنية التي تسهم في "ميول وتطلعات ومحفزات المفسر التي تدفعه لاستنطاق النص وإثارة الاستفهامات على النص، وفهمه أحد

(١) شبستري، **الهرمنيوطيقا الكتاب والسنة**، ص١٠٠.

القبليات والمقدمات في عملية الفهم"[١]؛ وعليه نستخلص السنة الطبيعية التالية: "كلما تغير الواقع؛ كلما دعا ذلك إلى تغير الفهم معه باضطراد"[٢]؛ بمعنى: أن أي عملية تفسيرية أو تأويلية لأي نص لا بد أن يسبقها فهم، وهذا الفهم لا بد أن يسبقه قبليات؛ هذه القبليات هي الرصيد، والمكوِّن الثقافي للمفسر، وهي بدورها تُكوّن لديه فهمًا محددًا تستثير لديه استفهامات محددة وأجوبة، فإن كان النقص يقبل هذا التأويل تَمَّ القول به، وإن غلب على نفسه شيء من الهوى بسبب تأثير القبليات كان من البعد عن محتوى النص وحقيقته، وقد تنبه علماء السلف لهذا الأثر الذي يبرز في تفسير المفسر، فوضعوا شروطًا للعملية التفسيرية، منها: ما هو عقلي ومنها ما هو لغوي ومنها ما هو نقلي[٣].

(١) المرجع السابق ص١٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٠.

(٣) الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج١، ص٢٦٥.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث وتوصياته..

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

من خلال استعراض محاور البحث ومضامينه نستطيع الخروج بعدد من النتائج المهمة، وهي:

أولًا: أن للقبليات المعرفية دور بارز في توليد الفهم لدى المفسر؛ لذلك لا بد من التحرر من سطوتها بصورة تعطي المفسر الاعتدال وتعطي النص دلالته الحقة والفهم السليم.

ثانيًا: أن المفسر في بيانه التفسيري لا بد له من مراعاة ثلاثة جوانب هامة، وهي: قبلياته، النص، الفهم الذي نتج من القبليات؛ لأن النص من دونهما لا وجود للفهم.

ثالثًا: أن هناك متغيرات عصرية أثرت في فهم النص، منها: الواقع الجغرافي المتباعد بصورته القديمة أصبح متقاربًا، فأثر في تقارب المعارف واختلاطها، وكذلك تطور الواقع المعرفي المرتبط بالتكنولوجيا الحديثة عبر أجهزة الأندرويد والكمبيوترات البحثية وغيرها؛ مما سهل حمله، وتم عبره نقل المعارف لحظة بلحظة، ويضاف إلى ذلك الواقع الإعلامي المسموع والمقروء والمرئي.

رابعًا: الاكتشافات العلمية ومدى الأثر الذي أبرزته في التقدم لا يجرنا إلى الانتقاص من فهم السلف والقدح فيهم، كما لا يلزمنا الامتناع من الرد على فهمهم إن كان غير سليم وفق حقائق العصر الحديث.

التوصيات: في ختام هذا البحث أوصي بما يلي:

أولًا: دراسة قبليات المفسر ووضع الضوابط التي تحفظ المفسر من الإسقاطات القبلية؛ لأن قبليات المفسر لها دور في فهم الواقع المتغير ضمن الثوابت التي بينها (القرآن والسنة)، وذلك بسبب التغير المتجدد الذي يعيشه زمن النص والمفسر، ولأن النص ثابت قطعي والمفسر متغير بحسب الظرف والزمان والمعارف.

ثانيًا: دراسة المدى التأثيري للمتغيرات العصرية الحديثة التي لعبت دورًا بارزًا في تلاقح المعارف وتقاربها من التقارب الجغرافي والتطور التكنولوجي البحثي والإعلام المرئي والمسموع والمقروء.

ثالثًا: ربط الاكتشافات العلمية المتعلقة بنصوص القرآن بكتب التفسير، وحل الإشكال القائم من بعض المفسرين في المنع من الإعجاز العلمي.

رابعًا: وضع الضوابط التي تربط الإعجاز العلمي بأقوال السلف وفق منهجية لا تظلم السابق وتستغبيه في معرفته إنما بمنهجية واقعية معرفية زمنية تعطي الاحترام للسابق والشكر للاحق وفق الأخذ بضوابط البحث والفهم لكتاب الله تعالى.

وختامًا أسأل الله -سبحانه وتعالى- أن ينفع بهذا البحث، وأن يجعله رافدًا لمكتبة تفسير القرآن الكريم وفهمه.

المصادر والمراجع

١. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت: ٥٧١هـ)، **تاريخ دمشق**، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

٢. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت:٣٢٧هـ)، **الجرح والتعديل**، (**الهند**: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٢٧١هـ ١٩٥٢م.

٣. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، **تهذيب التهذيب**، (الهند: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ).

٤. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت: ٤٥٦هـ)، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، القاهرة: مكتبة الخانجي.

٥. ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: ٧٧٥هـ)، **اللباب في علوم الكتاب**، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، (بيروت: لبنان، دار الكتب العلمية - الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م).

٦. ابن عربي، أبو محمد روزبهان ابن أبي النصر البقلي الشيرازي -محي الدين ابن عربي، (طبع سنة ١٣٠٠هـ)، عرائس **البيان في حقائق القرآن - تفسير ابن عربي**، مطبعة المنشي- نولكشور.

٧. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، (١٤١٩هـ)، **تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)**، (الطبعة الأولى) بيروت: منشورات محمد علي بيضون.

٨. أبو البركات الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري، (١٤٠٥هـ -١٩٨٥م)، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، (الطبعة الثالثة)، الزرقاء - الأردن: مكتبة المنار.

٩. الأصبهاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني، (١٤٠٨هـ)، **العظمة**، (الطبعة: الأولى)، الرياض: دار العاصمة.

١٠. الأصبهاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني (ت: ٣٦٩هـ)، **العظمة**، المحقق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، (الرياض: دار العاصمة -ط١، ١٤٠٨هـ).

١١. أبو حيان ، البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر، الطبعة: ١٤٢٠هـ).

١٢. البحراني، السيد هاشم البحراني، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، **البرهان في تفسير القرآن**، (الطبعة الثالثة)، بيروت: مؤسسة الوفاء.

١٣. البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

١٤. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

١٥. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، (١٣٨٢هـ -١٩٦٣م)، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، (الطبعة: الأولى)، بيروت – لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر.

١٦. الذهبي، محمد السيد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، القاهرة: مكتبة وهبة.

١٧. الذهبي، محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٨. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (١٤٢٠هـ)، **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، (الطبعة: الثالثة)، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٩. الراغب الأصفهاني، (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، **المفردات في غريب القرآن**، المحقق: صفوان عدنان الداودي، (دمشق بيروت دار القلم، الدار الشامية، الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ.

٢٠. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ)، **الأعلام**، (دار العلم للملايين، ط١٥ -أيار / مايو ٢٠٠٢م

٢١. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، (ط: ٢، ١٤١٣هـ)، **طبقات الشافعية الكبرى**، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٢. السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي، (١٤٢١هـ-٢٠٠١م)، **حقائق التفسير**، دار الكتب العلمية.

٢٣. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، بيروت: دار المعرفة.

٢٤. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، **الإكليل في استنباط التنزيل**، بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٥. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، لبنان/صيدا: المكتبة العصرية.

٢٦. شبستري، محمد مجتهد شبستري، (٢٠١٣م)، **الهرمنيوطيقا الكتاب والسنة**، ترجمة: حيدر نجف، مراجعة: عبد الجبار الرفاعي، (الطبعة الأولى)، بغداد: مركز دراسات فلسفة الدين – بيروت: دار التنوير للطباعة.

٢٧. شحرور، د. محمد شحرور، **دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم– المنهج والمصطلحات**، (لبنان: بيروت، دار الساقي، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

٢٨. الشوكاني، محمد على الشوكاني، (١٣٨٩هـ–١٩٠٧م)، **فتح القدير**، (الطبعة الأولى)، مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

٢٩. صالح صواب، صالح بن يحيى صواب، (١٤٢٩هـ)، **أثر الاكتشافات العلمية في تفسير القرآن الكريم**، بحث مشارك في المسابقة العلمية الأولى التي نظمتها مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الخامس.

٣٠. الطبرسي، أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، (٢٠٠٥م)، **مجمع البيان في تفسير القران**، (الطبعة: الأولى)، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع.

٣١. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م)، **تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (الطبعة: الأولى)، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

٣٢. العوتبي، سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي الصُحارى، **الإبانة في اللغة العربية**، المحقق: د. عبد الكريم خليفة ... وآخرون، (مسقط– سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م).

٣٣. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، **جواهر القرآن**، المحقق: الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القباني، (الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، بيروت، دار إحياء العلوم.

٣٤. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار المعرفة.

٣٥. الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز بادي (ت: ٨١٧هـ)، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، المحقق: محمد علي النجار، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي).

٣٦. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)، محاسن **التأويل**، المحقق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

٣٧. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، (١٣٨٤هـ -١٩٦٤م)، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، (الطبعة: الثانية)، القاهرة: دار الكتب المصرية.

٣٨. كالو، محمد محمود كالو، (١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م)، **القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير**، (الطبعة الأولى)، سوريا حلب: دار اليمان.

٣٩. الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، (جده: دار القبلة للثقافة الإسلامية - بيروت: مؤسسة علوم القرآن).

٤٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، بيروت: دار الكتاب العربي - الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧هـ.

٤١. الكواكبي، عبد الرحمن الكواكبي، (٢٠١٤م) **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، دار البشير.

٤٢. الكواكبي، عبد الرحمن الكواكبي، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، (دار البشير، ٢٠١٤م).

٤٣. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، **تفسير الماوردي = النكت والعيون**، بيروت -لبنان: دار الكتب العلمية.

٤٤. محمد أحمد لوح، **جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية**، دار ابن عفان للنشر والتوزيع.

٤٥. مصطفى محمود، **التفسير العلمي للقرآن بين المؤيدين والمعارضين**، (١٤٠٢هـ / ١٩٨١م)

٤٦. مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت: ١٥٠هـ)، **تفسير مقاتل بن سليمان**، المحقق: عبد الله محمود شحاته، (بيروت: دار إحياء التراث- الطبعة: الأولى - ١٤٢٣هـ.

٤٧. مكي بن طالب، أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، (١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م)، **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه**، (الطبعة: الأولى)، جامعة الشارقة: مجموعة بحوث الكتاب والسنة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.

٤٨. يحيى محمد، **جدلية الخطاب والواقع**، (٢٠١٢م)، المغرب: أفريقيا الشرق.

٤٩. يحيى محمد، (٢٠١٠م)، **منطق فهم النص-دراسة منطقية تعنى ببحث آليات فهم النص الديني وقبلياته**، المغرب: طبعة أفريقيا الشرق.